

وجود الخالق

مقدمة: يشتمل التنزيل الحكيم (المصحف) على مجموعة من المواضيع التي جاءت إلى النبي (ص) وحياً وبصورة صوتية على شكل آيات وسور. والجز الأكبر يمثل النبوة (القرآن) الذي فرق بين الحق والباطل في الوجود خارج الوعي الإنساني: كآيات الموت والبعث والساعة والآيات الكونية، والآيات التي تقص علم الماضي، وهي الآيات المتشابهات الثابتة النص والتي يتم تأويلها على مر العصور. وجزء آخر هو (الكتاب) وهو الآيات المحكمات وتفصيلها ولا تحتاج إلى تأويل، وتبقى ثابتة في النص والمعنى، لا تجوز الزيادة عليها أو النقصان منها، وتشمل آيات الرسالة وتفصيل الكتاب فقط. والرسالة تبين أحكام الحرام والأوامر والنواهي والعبادات والقيم الإنسانية والإرث والزواج والطلاق والمعاملات وما يلزم الإنسان في حياته الاجتماعية.

وقال تعالى: " **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين**" سورة البقرة 2، فالرسالة هداية للمؤمنين تبين لهم سلوكهم في الحياة. وقال تعالى: **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس** " سورة البقرة 185

أما آيات النبوة في القرآن فهي تخاطب جميع الناس سواء منهم المؤمن أو غير المؤمن. ومنها الآيات التي توجب على الناس التفكير في كيفية بدء الخلق. قال تعالى: " **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**" العنكبوت 20، والخطاب هنا ليس للعرب الذين عايشوا نزول الوحي فقط، بل لكل إنسان على وجه الأرض وعلى مر العصور منذ ذلك التاريخ إلى يوم القيامة. وقال تعالى: " **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**"، " **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**" الأنعام 2.

لم يكن دماغ الإنسان وقدرته على التفكير والتعقل فترة نزول الوحي قد وصل إلى الدرجة التي تمكنه من فهم القوانين والسنن الكونية، فاكتفى بالإيمان والتصديق. ومع تطور المعارف وأدوات البحث، صار الأنسان تدريجياً في العصور اللاحقة يغوص في العلوم والاستكشاف ويفهم هذه الظواهر وما وراءها من قوانين ناظمة بصورة أعمق، وسيظل كلما ازداد علمه يكتشف المزيد، ولا يعلم الحقيقة الكلية والنهائية إلا الله الخالق.

فيقول تعالى: "شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (18 آل عمران) ويقول: "..... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (7 آل عمران)، ويقول أيضاً "إنما يخشى الله من عباده العلماء" سورة فاطر 28.

والآن دعنا ننظر فيما يقوله نماذج من العلماء غير المسلمين:

ولنبداً مع اينشتاين: ماذا نعرف عن اينشتاين؟ إنه صاحب النظرية النسبية وساعد في إحداث ثورة في جميع العلوم من خلال استخدام الإحصاء والاحتمالات، واكتشف أن الطاقة والكتلة قابلة للتبادل ، مما مهد الطريق للطاقة النووية. ولكننا لا نعرف الكثير مما كتبه عن الخلق والخالق! فلماذا هذا التعظيم على آراء العلماء في الأمور الكونية؟

يقول اينشتاين " لا أستطيع أن أتخيل أن الخالق الذي أعطانا العقل والفضيلة والأحاسيس، يمنعنا من استعمالها". ويقول: "نحن مثل طفل دخل إلى مكتبة كبيرة تحوي كتباً في العديد من اللغات. يدرك الطفل أن هناك من ألف وكتب الكتب، ولكنه لا يعرف كيف تم ذلك. ولا يعرف اللغات التي كتبت بها. وهو يشك أن هناك قوة خفية قامت بتصنيفها وترتيبها على رفوف المكتبة، ولكنه لا يعرف ماهية هذه القوة. ويستمر اينشتاين ليقول "وفي رأيي أن هذه هي نفس الرؤية لدى أي انسان مفكر تجاه الخالق. فنحن نرى الكون منظماً بطريقة عجيبة وبدقة بالغة، وأن الكون يسير متبعاً قوانين خاصة بالكاد نستطيع فهم بعضها، ففعلونا المحدودة تستشعر القوة الخفية التي تتحكم بمجريات الكون. ويستمر اينشتاين بالقول: لا أحاول تصور أو تخيل الخالق، ولكن يكفي أن أقف وقفة إجلال وتعظيم من تركيبات هذا الكون البديع على قدر ما تستطيع أحاسيسنا المحدودة على تقديره. ويختم بالقول: العلم بدون الدين أعرج، والدين بدون العلم أعمى."

وإسحاق نيوتن (4 يناير 1643 - 31 مارس 1727) كان يعتبر لاهوتياً ثاقباً ومتقناً من قبل معاصريه البروتستانت. وهو مؤلف "المسالك الدينية" التي تناولت التفسير الحرفي للكتاب المقدس. كان اكتشافه لنظرية الجاذبية مصدر إلهام. في الثلاثينيات من عمره (1680) ، كان نيوتن يؤمن بعقيدة مسيحية ، لو تم الإعلان عنها ، لما تم اعتبارها أرثوذكسية من قبل المسيحيين العاديين. رأى نيوتن أن الله هو الخالق البارِع الذي لا يمكن إنكار وجوده في مواجهة عظمة كل الخليقة. هذا أجمل نظام للشمس والكواكب والمذنبات يمكن أن ينطلق فقط من سيادة كائن ذكي. هذا الكائن يحكم كل الأشياء بصفته رب الكل ؛ وبسبب سيادته يُدعى "الرب الإله" أو "الحاكم العام". فهو كائن أبدي ، غير محدود وهو كامل تمام الكمال.

وهذا العالم جاليليو (كاثوليكي إيطالي) يؤمن بوجود الخالق ، وفي الوقت نفسه آمن بدور العلم في فهم عظمة وجمال واتساق الخليقة. فيقول: "لست مضطراً للاعتقاد بأن نفس الإله الذي وهبنا

الحس والعقل قد قصدنا أن نتخلى عن استخدامها. إنه يشير إلى الأرض فيقول "إنها تتحرك" وهذا بمثابة إنكار مذهب للمفهوم الذي تبنته الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت، وهو أن الأرض كانت في مركز الكون ومن ثم ظلت ثابتة. لكن قبل أربعة قرون ، كانت فكرة أن النظام الشمسي ومركزية الشمس مثيرة للجدل لدرجة أن الكنيسة الكاثوليكية صنفتها على أنها بدعة ، وحذرت عالم الفلك الإيطالي جاليليو جاليلي من وجوب التخلي عنها. تضمنت مساهمات جاليليو جاليلي في علم الفلك دعمه وجهة نظر كوبرنيكوس بأن الشمس هي مركز النظام الشمسي ، وليس الأرض ، وباستخدام التلسكوب الجديد ومن خلال مراقبة البقع الشمسية أثبت أن القمر به جبال وحفر ، وساهمت أبحاثه في اكتشاف أقمار المشتري الأربعة ، و بما يثبت أن كوكب الزهرة يمر بمراحل. في النهاية. تم حظر كتاب جاليليو ، وحُكم عليه "الحجز في فيلا" لبقية حياته. توفي عام 1642..

فكما نرى، تمكنت الكنيسة ومن يمثلها بإخماد أصوات الكثير من العلماء الذين استعملوا عقولهم التي منحها الله لهم وأحرقوا كتبهم واتهموهم بالزندقة.

والآن دعنا ننظر كيف كان الحال مع العلماء من المسلمين:

ابن سينا: المشهور عن ابن سينا في كتبنا المدرسية أنه عالم في الطب والرياضيات والكيمياء، وقليلًا ما نعرف عن كتبه وآرائه في الفلسفة وعلم النفس وفي الدين. لقد حاول تقديم نظرة للتوفيق بين العقل والمنطق والمعتقدات الدينية السائدة. وكان يهدف إلى إثبات وجود الله وكيفية الخلق بأسلوب علمي يعتمد على العقل والمنطق. ولكنه كغيره من المفكرين اتهم بالزندقة.

وهذا أبو بكر الرازي 864 – 923 م عرفنا أنه أبو الطب العربي، ولكن لم نعرف عن آرائه في الدين وبأن الطريق للوصول إلى الله يكون عبر العقل والمنطق. وقد اتهم بالزندقة. ومع عدم اتفاقنا معه في كل آرائه، إلا أننا نرى أنه كان يمكن مجادلته بالمنطق نفسه بدلا من اتهام العلوم نفسها وتحريمها من قبل رجال الدين.

وهذا ابن الهيثم عالم البصريات يُتهم بالزندقة لترويجة لفكرة استخدام المنطق في دراسة التراث الإسلامي.

وهذا ابن اسحق الكندي العربي وسط زملاء عصره الذين كان معظمهم من الفرس. أَلْف مئآت الكتب والرسائل التي تطرقت الى الموضوعات التطبيقية والفلسفية. كان يؤمن أن النقل ليس مقدما على العقل، وأن العقل محور التصورات الإنسانية والمقياس لكل شيء حتى النص المقدس. إلا أن الحماية التي أحاطته من طرف الخلفاء المأمون والمعتصم حمته من خصومه من

رجال الدين. ولكن في عهد الخليفة المتوكل الأصولي، الذي أخذ برأي الفقهاء الأصوليين، أمر بإحراق مكتبته وجلده خمسين جلدة أمام الناس باعتباره زنديق.

وهذا ابن رشد أشهر الفلاسفة المسلمين دخل في معارك مع الأصوليين لأنه يقول بوجوب استعمال العقل والمنطق في فهم آيات القرآن وان لا يكتفى بطاهر الآيات. اتهم بالزندقة وأحرقت كتبه في حياته وتعرض للاضطهاد رغم أنه كان قاضياً ومفتياً. فكما نرى، تمكنت جماعة ممن سموا أنفسهم الأصوليون وأهل السنة، بإخماد أصوات الكثير من العلماء الذين استعملوا عقولهم التي منحها الله لهم وأحرقوا كتبهم واتهموهم بالزندقة.

لقد دعانا الله إلى التفكير والتأمل فيما حولنا لنستنتج وجود وقدرة الخالق.

قبل 1400 سنة ورد في القرآن إشارات تحت ذوي العقول النيرة إلى البحث لفهم وتأويل الكثير من الآيات المتعلقة بخلق الكون وخلق الإنسان. ونحن ندرك أنه في أي محاولات للتفسير والتأويل يجب أن يكون حاضراً في الأذهان أن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها وأنه ليس كتاب علوم الطبيعة أو الفلك. فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة عن الكون في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقاها ممن يعلم السر في السموات والأرض (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا) الفرقان: 6

ولقد قال الله سبحانه : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله . وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا .

إن مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية . وإن وظيفته أن ينشئ تصورا عاما للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه ؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاما للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته . . ومن بينها طاقته العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان - وبالتجريب والتطبيق، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

وختاما نرى كيف نصَّب بعض الفقهاء والمشايخ المسلمين أنفسهم ممثلين عن الله، يصدرن الأحكام بالكفر والزندقة على كل من يحاول استخدام نعمة العلم والعقل التي وهبها الله له بنفخة الروح. ولا زالوا يتمسكون بما قاله الأوائل قبل أكثر من ألف سنة، خلافا لأمر الله بالتدبر والتفكير، ويصرون على مقولة "هذا ما وجدنا عليه آبائنا".

هل كان آدم اول الخلق

لمقاربة هذا الموضوع لا بد من الرجوع أولاً الى المصدر الأساس وهو القرآن، والقرآن ليس كتاباً في تاريخ الأمم، وليس كتاباً في علم الانثروبولوجيا، وليس كتاباً في علم الآثار أو في علم الطب. إن القرآن هدى للناس جميعاً يتضمن العشرات من الآيات التي ترشد الإنسان إلى تدبر الآيات. ففي موضوعنا عن خلق آدم علينا أن ننظر إلى جميع الآيات التي تتعلق بهذا الموضوع وجاءت متفرقة في العديد من السور في القرآن وندرسها كوحدة متكاملة. وعلينا بالتوازي أن ننظر إلى ما توصلت إليه العلوم والاكتشافات (مع الادراك أن هذه العلوم تتطور باستمرار ولا يمكن اعتبار نظرياتها كحقائق نهائية، وأن نتعامل معها كدلائل. فما ورد في القرآن هو الحقيقة. فإن توافقت الدلائل مع المبادئ العامة التي وردت في القرآن فنعما بها، وإن لم تتوافق نقول للعلماء والباحثين أن يتبعوا منهجاً آخر في الدراسة، فلربما يهديهم الله إلى الاقتراب من الحقيقة).

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} ﴿٢﴾ {الأنعام}

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ " سورة الروم 20

" وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ " سورة الأنبياء الآية 30

{ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمأ مسنون} (الحجر 26)

"والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع" [النور:45]

{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}. {فاطر / 28

"يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم * الذي خلقك فسوّك فعدّلك * في أي صورة ما شاء ربك" سورة الانفطار

{خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلمات ثلاثٍ ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون} (الزمر:6).

{12} {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ {13} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ {14} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكِ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}

ترشدنا الآيات السابقة **عن بداية الخلق للكائنات الحية** حيث تشترك في أصلها (التراب والماء والطين). وبقدرة الله نشأت الخلية الأولى الحية التي صارت تتكاثر، ونشأ عنها - بعد أجل بعلم الله - عدة أصناف من الكائنات الحية ذكر منها سبحانه وتعالى بعض الأنواع: الزواحف التي تمشي على بطنها، الحيوانات التي تمشي على أربع، وفصيلة ثلاثة تمشي على رجلين وهي فصيلة البشر. ثم بعد أجل، صارت كل فصيلة تتكاثر بالتزاوج وتنتشر في بقاع الأرض. وقد منح الله كلاً من مخلوقاته جسماً يتناسب مع متطلبات حياته. ومنحه وسيلة للتواصل مع بقية أفراد جنسه ودماعاً يتناسب مع حجمه واحتياجاته. عاش جنس البشر كغيره من الحيوانات وانتشر في بقاع الأرض. ثم بعد مدة من الزمن قَدَّرها الله بحكمته، اختار سبحانه أحد فصائل البشر ليوكل إليها الخلافة في الأرض. ثم **اصطفى** من هذه المجموعة شخصاً أطلق عليه اسم آدم فصارت هذه المجموعة يطلق عليها بني آدم. فكان آدم أول نبي يصطفيه الله ويميزه وجماعته بنفخة الروح.

والآن دعنا ننظر ماذا قال علماء الأنتروبولوجيا وعلماء الآثار في هذا الموضوع:

- على ضوء دراسة الهياكل البشرية المكتشفة من الحفريات قدروا أن فصيلة البشر تواجدت أولاً في إفريقيا قبل حوالي 1.8 مليون سنة، ولمجابهة تحديات البيئة صارت قواه العقلية تتطور إلى أن وصل إلى مرحلة القدرة البدائية على العقلنة قبل حوالي 200,000 سنة.
- بلغ البشر مرحلة أكثر تطوراً في النضج العقلي قبل حوالي 35000 سنة.
- ثم بزيادة الحاجات وزيادة التواصل فيما بين الجماعات، حيث صاروا يمارسون الزراعة والبنيان والتجارة والرسم والنحت والنقوش، ازداد إدراك البشر وذلك قبل حوالي 5000 سنة، في عصر نوح وهود وشعيب وصالح.

ولا أجد في هذه الاكتشافات ما يتناقض مع ما ورد في القرآن الكريم، بل فيه دلالة على أن البشر وصل مرحلة من النضج في الفترة التي اصطفى الله بها آدم والتي تقدر حسب ما ورد في الروايات التلمودية بما قبل 10000 سنة.

ونرجع الآن إلى مرحلة اصطفاء آدم. فهل كان آدم أول الخلق؟؟؟ والمقصود هنا آدم المذكور في القرآن الكريم و المقصود بالسؤال هل آدم هو أول الخلق من البشر؟؟؟ فحسب المعلومات التي تعلمناها واجمع عليها أكثر علماء الدين أن آدم هو أول الخلق من البشر و قالوا في خلقه الكثير....ولكن آدم الذي نتحدث عنه المصادر الدينية في القرآن والتوراة والكتاب المقدس، وهو الذي ارسل قبل نوح لا يعود تاريخه الى أكثر من سبعة الاف سنة على أكثر تقدير، فكيف يكون هو أول البشر وقد ثبتت في بحوث العلماء (علم ما قبل التاريخ) وأثر الانسان انه يعود الى

ازمان ودهور ابعدها من ذلك بألاف و ربما ملايين السنين؟. لذلك دعنا نناقش الأمر من منطلقات أهل التراث. ولننظر ما ورد في القرآن الكريم: " {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ..} الآية ال عمران 33 ولنسأل من بين من اصطفى الله آدم؟؟؟ ونعرف جميعا ان الاصطفاء يكون اختيار من بين مجموعة وعليه لا بد ان يكون هنالك الكثير من البشر يعيشون مع آدم وان الله اصطفاه من بينهم ليكون عليهم نبيا. لقد ورد في مسند أحمد - مسند الأنصار حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه (حديث رقم: 21546)

".....قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: "آدم" قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: "نعم نبي مُكَّم" قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: "ثلاث مائة وبضعة عشر، جما غفيرا" وهذا يعني انه كان صاحب شريعة، ولا بد ان يكون لديه قوم يُعلمهم ويطبق عليهم هذه الشريعة وذلك لأن صفة النبي المُكَّم تعني النبي المرسل بشريعة من الله لقوم ذلك النبي. قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض فمنهم من كلم الله....." واخيرا اذ لم يكن آدم هو اول الخلق... فهل تكون حواء خلقت من ضلع آدم الاعوج كما ندعي؟؟؟ إذا تأملنا بعض آيات القرآن التي تتناول خلق آدم، ظهر لنا أن النوع الإنساني لم يبدأ بعد، بينما كان معه كثيرين من البشر كانوا موجودين في عصره. كما في قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الرض خليفة * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ...) سورة الأعراف 12.

وثمة آيات أخرى تدل على أن آدم (عليه السلام) لم يكن أول بشر ظهر في الوجود، بل كان في عصره كثير من الناس غيره.. يقول الله تعالى: (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة). ويصح من الناحية اللغوية أن يكون المراد بالزوج الأصحاب والجماعة، وبمعنى ذلك أن بني نوعه أيضا كانوا موجودين. ثم قال عز وجل بعد هذه الآية: (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو * ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين *). .. وهنا الخطاب للجماعة، وبعدها قال: (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون *) وقال أيضا: (قال اهبطوا منها جميعا لبعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى *) "سورة طه: 124." وخطاب آدم هنا يراد به جماعة آدم ومن معه.

الخلاصة:

1. أن خلق الإنسان كما أخبر القرآن الكريم.. لم يتم دفعة واحدة، بل إن الجزئيات الدقيقة من الطين تطورت في نشوئها، ومرت بمراحل عديدة مختلفة إلى أن تحولت للصورة الإنسانية.
2. أن مكونات البشر منذ بدايتها وفي أبسط صورها كانت فصيلة خاصة بجانب الفصائل الأخرى، وكانت مهياً لتكون في النهاية ذلك الكائن البشري، وليس كما زعم الفلاسفة وأصحاب نظرية التطور بأنه نتيجة تطور مصادف في الحيوانات المختلفة.
3. أن الوجود البشري الأول لم يكن يتلقى الوحي السماوي، ولكن جيلا من سلالة التي خلقت من النطفة، هو الذي وصل إلى حد أهله لتلقي الوحي، وأول من حاز هذا المقام الجليل هو مَنْ

أسماء القرآن الكريم.. آدم.

4. أنه كان قبل آدم، وفي زمنه، كثيرا من بني جنسه. وقد اختار الله تعالى آدم ليكون خليفة، يجمع شملهم بنظام وهداية سماوية، وأن معاصريه هؤلاء كانوا معه في تلك الجنة الأرضية التي عاش فيها، وأنهم أخرجوا منها أيضا معه.

يفهم من هذا الكشف أن آدم الموحى إليه، والذي ينتسب إليه بنو آدم اليوم، لم يكن آدم الأول، بل إنه آخر الأوامد. وكذلك يظهر منه أن كلمة "آدم" قد تستعمل كصفة أيضا بمعنى الجد الأكبر، وأن الوجود البشري مازال مستمرا منذ أقدم العصور، وأن الدور المذكور في الأحاديث النبوية الشريفة.. والمحدد بسبعة آلاف سنة.. إنما أريد به دور آدم الأخير فقط.. وليس أدوار البشرية جمعاء.

بعد أن أشار القرآن إلى اصطفاء المصطفى محمد (ص) وبعثته إلى الناس بالقرآن الكريم الذي لا ريب فيه، وهدى للمتقين، من عند الله تعالى.. ذكر اصطفاء الله تعالى لآدم.. فدلّ بذلك على أن نزول الوحي السماوي وبعث الأنبياء ليس من البدع، بل إنه سنة مضطردة منذ خلق الإنسان على هذه البسيطة، ولا يزال مستمرا دون انقطاع، وإن آدم هو الإنسان الأول، ومعه بدأ نزول الوحي السماوي، وأن الله تعالى لم يترك الإنسان مهملا مضيعا أبدا، بل ما زال قائما على هدايته منذ البداية. وتشير الآية أيضا إلى أن آدم خلُق على هذه الأرض وكانت مهمته في هذه الدنيا، وعلى هذه الأرض ذاتها.. وذلك بخلاف ما يزعم البعض من أن آدم أدخل الجنة التي يدخلها الصالحون بعد موتهم. ومما يدعو للتعجب.. إن الله عز وجل يقول (إني جاعل في الأرض خليفة)، ومع ذلك يصر البعض على دخول آدم في الجنة الموعودة في الآخرة. وقد قال بعضهم بأن الله خلق آدم أولا على الأرض ثم أدخله الجنة.. ولكن الآية لا تسيع هذا القول، لأنها صريحة في جعل الخليفة في هذه الأرض. ومن البين أنه يستخلف في الأرض من أجل هدف وغاية، ولا يتحقق ذلك بدخول آدم في الجنة.

وآيات القرآن الأخرى تدحض هذا الزعم، فمثلا: يقول تعالى عن جنة الآخرة الموعودة للمتقين بأنها (لا لغو فيها ولا تأثيم) "سورة الطور: 24".. ولكن الجنة التي دخلها آدم دخل أيضا معه فيها شيطان، وحرصه على معصية الله تعالى. ثم يصف الله جنة المتقين بقوله (لا يمسمهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) "سورة الحجر: 49".. لكن آدم أخرج من الجنة. وكذلك يقول عن جنة الآخرة نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ "سورة فصلت: 31"، ولكن آدم أخرج من الجنة بسبب اقترابه من الشجرة. وجاء في وصف جنة الآخرة (نتبأ من الجنة حيث نشاء) "سورة الزمر: 75"، ولكن آدم أمر بالأمر بالقرب الشجرة.

يتبين مما سبق أن جنة آدم (عليه السلام) كانت على هذه الأرض، لأنه كان خليفة لأهل هذه الأرض، فكان محتما بقاؤه فيها حتى الموت. وجنة الآخرة لا موت فيها.

تعلم آدم وتعلم الطفل

ورد في القرآن الكريم إشارات الى العملية التعليمية قبل أن تتطور العلوم التربوية والإنسانية في العصور اللاحقة. فإذا تدبرنا قصة خلق آدم في القرآن ومراحل تعليمه، نرى أنها مثالا ونموذجاً نحذيه في عصرنا الحالي متمثلاً في نشأة الطفل ومراحل نموه وتعليمه.

المرحلة الأولى:

آدم : اصطفى الله آدم من بين مجموعة البشر، الذي هيا له سبحانه وتعالى أن يكون في احسن تقويم من حيث تكامل جسمه المؤلف من الأعضاء الظاهرة والأعضاء الداخلية من قلب وجهاز هضمي وجهاز تنفسي وصوتي وجهاز عصبي يحوي ملايين من الشبكات العصبية التي تربط أجزاء الجسم ببعضها، ومنها الدماغ الذي يحوي بلايين من الخلايا العصبية. ففي لحظة الاصطفاء، كان جنس آدم قد أصبح جاهزاً لمواجهة الحياة. وحسب مكتشفات العلوم الأثرية استغرق ذلك ملايين السنين.

الطفل: أخبرنا الله عن تطور الجنين داخل الرحم من نطفة ثم من علقه إلى أن أصبح جاهزاً للخروج للحياة كامل الأعضاء وكامل الدماغ بما فيه من بلايين الخلايا العصبية، كما ورد في علوم تطور الجنين والدماغ. وبحكمته وقدرته سبحانه جعل هذه المرحلة تتم في تسعة أشهر.

فنشأة الطفل في هذه المرحلة هي كنشأة آدم حين حصل على نفخة الروح مع اختلاف المدة الزمنية.

المرحلة الثانية:

آدم: لم يكن لدى آدم أي معارف أو علوم أو قدرة على مجابهة متطلبات البيئة الجديدة، ولم يكن له أب أو أم لتعليمه وارشاده، فتولى رب آدم ورب العالمين مسؤولية تعليمه. وكما نعلم، فإن الله سبحانه من مقام الربوبية هو المالك والمربي والمعلم. فقال سبحانه "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا". وكيف بدأ تعليمه؟ قال سبحانه "عَلَّمَ بِالْقَلَمِ" والقلم هنا من التقليم أي عملية تمييز الأشياء بعضها عن بعض، واولها تمييز الأصوات، فأصبح يميز بين الأصوات التي يسمعها من حوله ويتعرف على ماهيتها من أصواتها.

الطفل: يفيدنا الله وتفيدنا العلوم أن الطفل يخرج من بطن أمه ودماغه مجهز ببلايين الخلايا العصبية الكامنة، ولكن معلوماته تكون كصفحة بيضاء. ويقول تعالى: "وَاللَّهُ أَحْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) النحل

فتقع مسؤولية التعليم على رب البيت. ومن أين يبدأ التعليم؟ يبدأ من تمييز الأصوات، ومن ثم يبدأ بالتمييز بين الأشياء، فيقوم رب البيت بإحضار اللعب والكتب والقصص المصورة لتطوير معارف الطفل. هذه العملية التعليمية تتم عندما يبلغ الطفل حوالى سنتين من عمره.

المرحلة الثالثة:

آدم: يبدأ رب آدم بتعليمه الربط بين المشخص والمجرد فيقول: " وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ " فالقصد هو تعليم آدم عن الحرام والحلال وعن الأمر والنهي، والطاعة والمعصية، واستعمل الشجرة كرمز لبيان ذلك. ثم يعلمه أن لديه حرية الاختيار، فيوسوس له الشيطان فيعصي أمر ربه، فيعاقبه سبحانه بأن يأمره بمغادرة مكانه إلى مكان أقل رفاهية ليعتمد على نفسه في كسب عيشه. ومن ثم يتلقى هدى من ربه، فيعلمه كيف يتوب ليغفر الله له. ويعلمه أن الشيطان عدو له ولبنى آدم فليحذروه. وكما أخذت هذه العملية التعليمية من الوقت، فالله أعلم.

الطفل: تدريجياً عندما ينمو إدراك الطفل يبدأ الأهل بتعليمه عن الأمور المجردة مثل الأحرف والكلمات ومن ثم الربط بين المجرد والمشخص مثل الكتب التي فيها كلمات مصحوبة بصورة تمثل الكلمة. ومن ثم يبدأ التعلم من التجارب التي يمر بها الطفل، فإذا اقترب من النار يوجهه الأب بمخاطر الأذى، وأحياناً يعصي الطفل فيحرق أصبعه. فيتعلم أن المعصية تنتجتها أذى. وفي هذه المرحلة يقوم الأب الصالح بتعليمه القيم الإنسانية بعدم الكذب وحسن المعاملة وما شابه ذلك. ويكون الطفل ما بين الثالثة والرابعة من العمر حسب ما يتوفر له من وسائل التعليم.

المرحلة الرابعة:

بنو آدم: تتوالى الأجيال بعد آدم، وتتعدد ظروف الحياة فيواجهه بنو آدم تحديات جديدة تُفَعِّل الخلايا العصبية في الدماغ لمواجهة هذه التحديات، فتزداد معارفه وقدراته تدريجياً. وبعد خمسة آلاف سنة يتأقلم ويبدأ ممارسة الزراعة وتذليل الأنعام.

الطفل: ما بين الثانية والخامسة من العمر يبدأ الطفل حسب البيئة التي نشأ فيها بالتفاعل الواعي مع أفراد العائلة ومع الأطفال في محيطه ويبدأ بمواجهة ظروف جديدة وتُفَعِّل الخلايا العصبية في الدماغ لمواجهة هذه التحديات فتزداد معارفه وقدراته تدريجياً.

المرحلة الخامسة:

بنو آدم: يستمر التطور ويبدأ الإنسان بإنشاء القرى والمدن ويبدأ بالتفاعل مع من حوله من سكان المدن فتزداد معارفه. وفي هذه الفترة تختلط عليه أمور العلاقة بينه وبين الخالق فصار يقدر العديد من الظواهر الطبيعية والأوثان. ولم يترك الخالق هذا الإنسان للضياع، فصار يبعث

الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى التوحيد واتباع شريعة الله واتباع الأنبياء بالمعجزات المشخصة لتتناسب مع مستوى وعي الناس وإدراكهم. وتشمل هذه الفترة من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام.

الطفل: بعد الخامسة بدأ الطفل يكبر ودماعه ينضج، يذهب للمدرسة فيقرأ ويكتب ويشاهد العالم من خلال القراءة ومشاهدة التلفاز وما ينشر على الهاتف المحمول. وفي خلال خمس سنوات صار إدراكه العقلي يعادل ما وصل إليه بنو آدم بعد عشرة آلاف سنة من خلق آدم.

المرحلة السادسة:

بنو آدم: بعد عشرة آلاف سنة من خلق آدم، حين وصل الإنسان إلى مرحلة من النضج العقلي والإدراك، بعث الله آخر الأنبياء والرسل محمد (ص) ليختم الرسالات، وجعل برهان نبوته آيات القرآن الكريم بدون حاجة للبراهين المشخصة. وفي الآيات المحكمات وتفصيلها، ليس للإنسان الحق في الزيادة عليها أو النقصان منها. أما في آيات النبوة (المتشابهات) فقد أمرنا الله للسير في الأرض والنظر في كيفية الخلق، وذكر لنا في آيات مختصرة عن بديع خلقه للسموات والأرض والكواكب وغيرها في مئات من الآيات. وحث الإنسان على التفكير واستعمال ما وهبه الله من العقل وما اكتسبه من العلوم لاكتشاف تفاصيل هذه القوانين الكونية وكيفية عملها على مر العصور. وأعلمنا أن الحقيقة المطلقة في علمه تعالى، وأن بعضها لن نستطيع اكتشاف كنهها حتى يوم القيامة، مثل الجنة والنار وما شابه من الغيبيات. ولكن التابعين انشغلوا بتفاصيل العبادات، واتهموا كل من يحاول استعمال العقل والعلم بالزندقة. فقامت الحضارات الأخرى باكتشاف دلائل على قدرة الله والمسلمون في سبات عميق أدى إلى تخلفهم.

الطفل المعاصر: بعد أن وصل مرحلة البلوغ صار يعتمد أكثر فأكثر على نفسه في تكوين رأيه. وشجعه أهله، ولم يعودوا المصدر الرئيس لمعلوماته. وقد دلت دراسات تطور النمو ومقياس الذكاء في تجارب مخبرية على أن إنسان اليوم العادي يعتبر عقبرياً مقارنة مع الإنسان قبل مئة عام. فما بالك إذا قارنت معدل الذكاء مع من عاش قبل ألف سنة!!